الطاهر وطّار

قصص

- الشهداء يعودون
-الطاحونة
-ممر الأيام
-رقصات الأسى

الشهداء يعودون

هذا الأسبوع

عندما خرج من مركز البريد برسالة في يده، قال له الموظف، وهو يناوله إياها:

- جاءتك من الخارج، يا عمي العابد، من بلد بعيد جداً.

اتجه إلى ظل شجرة ليجلس على صخرة، وهو يتساءل:

- توجه لي أنا، العابد بن مسعود الشاوي الذي لم تربطه بالخارج صلة خلال الستين عامًا التي عاشها. رسالة من الخارج. من بلد بعيد جداً. من أعطى عنوان العابد بن مسعود الشاوي إلى الخارج حتى يكتب له؟ ترى من يفكر في الكتابة لي من الخارج؟

فتح الرسالة، وانحنى عليها، وأغرقها في عينيه ولبث هناك متكوراً في برنسه الأبيض المتسخ. دار الظل وتركزت فوقه الشمس، ثم بدأت تتراجع أمام ظل الجدار وهو ما يزال في نفس الوضع.

أخيرًا، وبعد قرابة الأربع ساعات طوى الرسالة ووضعها في كيس صغير معلق بعنقه، ثم نهض متثاقلاً وراح يسير بخطوات وئيدة، مع الشارع المنحدر من طرف القرية، ليستأنف صعوده حتى الطرف الآخر:

- الله يعينك يا العابد.

قال له شيخ يصعد الشارع فوقف. حدق فيه مليًّا، ثم أشار إليه بأطراف أصابع يده:

- تعال. تعال.

تناول يده، وحدق في عينيه جيداً ثم فاجأه:

- ألم تفكر قط أن ابنك الشهيد قد يعود يوماً يدقّ الباب ثم يقتحمه ويتناولك بين أحضانه؟

- أقسم بالله العلي العظيم، أن خيال ابني لم يفارق عيني قط منذ سبع سنوات، كلما وضع الغداء أو العشاء، رحت أبحث عنه يمنة وشمالاً، منتظرًا التحاقه بي. كلما انفتح الباب اهتز قلبي وقلت هو. كلما وقف أحد عند رأسي، انتظرت طلعته. لو يعود لنا الشيء العزيز الذي افتقدناه ونموت نحن، حياتنا بدونهم يا العابد يا - ابن أمي -، لا معنى لها.

- إنني أتحدث جدًّا يا المسعي.

- أو تراني أهزل. وهل المقام مقام هزل يا رجل؟ عندما يتعلق الأمر بالشهداء، يصبح في غاية من الجدية.

- تصور أن برقية أتتك الساعة تخبرك بمقدمه غداً أو بعد غد!؟

- أفرح وأقيم الأعراس طبعاً.

- فكر جيداً.

- في الحقيقة، عودة متأخرة مثل هذه، تنُمُّ عنها مشاكل، مشاكل كبيرة، مشاكل عويصة. لو حدثت في السنتين الأوليين للاستقلال لكانت معقولة. أما بعد كل هذه السنوات، فالمسألة تتطلب تفكيراً جديداً قلت لك.

وداعاً، لدي أمور عاجلة يدعوني إنجازها إلى الذهاب بهذه السرعة.

- بلغني أنهم سيعودون كلهم. وداعاً.

ومر العابد في سبيل حاله، في حين ظل المِسعي واقفاً يتأمله وهو يتمتم:

- خفّ عقله. في طريق الجنون. الناس تسير إلى الأمام، وهو لما يزل مشدوداً إلى الماضي، يتحسر على ابنه، لو عاد مثلما عادت البقية، لما كان يفضل أي واحد بشيء. يعطونه رخصة سيارة أجرة، أو ينسونه تماماً. ابني أتى بحقه مضاعفاً. وها أنا أتقاضى منذ سبع سنوات مبلغاً ما كنت أحلم به قط. إذا ما أريد توزيع إعانة أو ملابس كان نصيبي الأول. وإذا ما شُرِع في مد القروض للفلاحين كانت حصتي الأولى. وإذا ما وقفت أمام محكمة، طالبًا أو مطلوبًا حضر ولدي في القضية ليكسبني إياها. الحمد لله على ما تبقى، والله يرحم جميع الشهداء.

- الله يمسيك بالخير ياسي قدور.

- أهلاً بعمي العابد، أي قدر فرض عليك الدخول هنا هذا المساء. أهلاً. أهلاً. قازوزة - عمي العابد؟

- لا. والله لا. أردت أن أسلم عليك لا غير. هذه مدة لم أرك.

- يبارك فيك. الخبزة الملعونة يا عمي العابد. ها أنت ترى (...). لا بد لنا من أن نعيش يا عمي العابد، وأن نعيّش الجيش المرتبط بنا من الأطفال والأقارب.

- إرادة الله يا ابني. هكذا كتب لكم أن تحلوا محلهم. عسى أن تكرهوا شيئاً. هذه المرة الثانية تطأ قدماي عتبة هذا المحل. المرة الأولى كانت سنة أربعين. طلبني - القائد - لينتزع مني الحصان الوحيد ليرسله إلى الحرب، وهذه المرة الثانية، جئت لأراك.

- مرحباً.

- أريد أن تعيد عليَّ قصة استشهاد ابني مصطفى كما حدثت.

- لو تعود في فرصة أخرى يا عمي العابد.

- لا. أطلب من فضلك أن تعيدها عليّ الآن.

- كنا قادمين من الأوراس، في طريقنا إلى الحدود نحمل بريد الولاية. كنا نسير جنباً إلى جنب، وبعد مدة لست أدري كيف سبقني مصطفى. لم يبق لنا لبلوغ الأسلاك الكهربائية إلاّ مسيرة ساعة ونصف. وكانت الليلة مقمرة. رفعت رأسي لأطلب من مصطفى أن ينتظرني فوجدته جامداً في مكانه وهو يهتف:

- الله أكبر.

- ماذا هناك يا مصطفى؟

- تحت رجلي لغم. قف مكانك.

- لكن لا بد من مساعدتك!

- لا تستطيع، لازم موقعك. انبطح لكي لا تتطاير عليك الشظايا.

ما أن انبطحت حتى حدث دوي أول وثان. ألقي مصطفى بنفسه في حفرة فانفجر اللغم الذي يقف عليه، حظه. كانت الحفرة أيضاً ملغمة. سارعت إليه لأجده قد فارق الحياة. كان صدره رحمه الله مفتوحًا. دفنته هناك يا عمي العابد وواصلت طريقي.

- دفنته تقول؟

- أي نعم، بيدي هاتين، كم بكيت، كان أكثر من أخي يا عمي العابد.

- لو لم تكن الحكاية صادرة منك لما صدقتها أبداً.

انتفضَ قدور، وراح يصوب له نظرة جانبية، ليتأكد من مغزى كلامه هذا.

- ماذا تعني يا عمي العابد؟

- مصطفى ولدي سيعود عما قريب في ظرف أسبوع!

- مصطفى يعود؟ ماذا تقول يا عمي العابد؟!

- اسمع يا قدور ابني. حكايتك صحيحة، ولا مجال للشك فيها.

- طبعاً.

- ولكن أحلامي أيضاً صحيحة. لقد وقف مصطفى هذا الصباح، بعد صلاة الصبح، على رأسي، وقال لي بالحرف الواحد: أنا لم أمت. نجوت من اللغم بأعجوبة سأعود إليكم خلال عشرة أيام على الأكثر.

- ألم يقل لك شيئًا آخر؟.

- هذا ما قاله.

- الله يرحم الشهداء، يا عمي العابد. مصطفى ينعم الآن في جنة الخلد، فكر في نفسك يا عمي العابد. تناول مشروباً عمي العابد.

- كثر الله خيرك.

قصد الباب، وانحدر يواصل دبيبه مع الشارع.

- كيف أمسيت يا عمي العابد.

رفع إليه بصره: الشاب عبد الحميد، شيخ بلدية القرية.

- بخير. تعال، يا عبد الحميد يا ابني أريد أن أسألك.

- خير إن شاء الله يا عمي العابد.

- بصفتك شيخ بلدية القرية ومدير مدرستها، أردت أن أسألك.

- تفضل.

- ماذا يكون موقفك كشيخ بلدية لو يعود شهداء القرية كلهم أو على الأقل البعض منهم.

- لماذا هذا السؤال يا عمي العابد؟.

وقال لنفسه، إذا ما عاد مصطفى ابنك، فسأنتقم لأبي، سأكل لحَمهُ بأسناني. في حين راح الشيخ العابد يؤكد لنفسه، لن أحدثه عن مصطفى فهو الذي اغتال أباه الخائن.

- مجرد سؤال خطر بذهني، وأرجوك أن تجيبني عنه بصراحة. بكل صراحة.

- الأمر بالنسبة لي بسيط، إنهم مسجلون في سجل الوفيات، وعليهم أن يثبتوا حياتهم من جديد. لن يتسنى لهم ذلك حتى تنتهي مدة انتخابي على الأقل.

- لكن الأمر يتعلق بشهداء.. بمجاهدين حقيقيين أعني.

- وإن كان.

- ماذا تعني؟

- لن يلبثوا أسبوعًا، حتى يتزيفون، سيؤولون إلى ما آل إليه غيرهم.

- وإن عادوا بسلاحهم؟!

- تتعداني المسألة إذ ذاك وتصبح متعلقة بالدولة. الأمر جد بسيط بالنسبة للقانون يا عمي العابد، ولكنه سيكون أكثر تعقيدًا بالنسبة لكم أنتم.

ومر في طريقه وهو متأكد من أن الشيخ العابد المسكين، في طريقه العاجل إلى الجنون. لقد أصبح يرى رؤى غريبة ويطرح أسئلة أشد غرابة منها. نظرته لا تعجب. جفناه مترهلان، وعضلات وجهه متصلبة، ويداه ترتجفان. إنه مريض.

واصل الشيخ العابد انحداره مع الشارع، منحني الظهر مطأطأ الرأس. القانون. مسألة الأموات بالنسبة إليه بسيطة، يعقد عليهم طريق إثبات حياتهم ويتركهم. إجابات شيخ البلدية واضحة وبسيطة، كأنما استعد لها من قبل. لقد تدرب في الأحياء. مارس العملية بالفعل في الأحياء. المكافحون بالنسبة إليه، شهداء كانوا أو غير شهداء، أموات يجب أن يظلوا يكافحون من أجل إثبات حياتهم.

ابن خائن.

سكان القرية كلهم يعرفون ذلك. لكنُّهم انتخبوه، انتخبوه بالإجماع، أنا بدوري صوّتُّ لفائدته.

ابن الخائن.

لكن ما ذنبه؟ ذنبه أنه احتل المنصب الذي كان يشغله أبوه قبل أن يُعدم.. على يد ولدي مصطفى. لم تكن حاجتنا إليه شديدة، فالقرية تتوفر على متعلمين غيره، مناضلين وجنودًا وأبناء الشهداء.. تصورنا الساذج، أنه كابن شيخ بلدية سابق، يكون أنجح من غيره. الاستسلام المطلق لموجة العفو العام عما سلف، هو الذي حملنا على انتخابه. لعل رغبتنا العامة، في طي صفحة الثورة هي التي جعلتنا نقدم على ذلك. إنني لأتساءل هل كنا نرفض الانتخاب على أبيه الخائن لو بقي على قيد الحياة؟ لقد فعلنا أكثر من ذلك. أسوأ منه.

- كيف حالك يا عمي العابد؟

رفع بصره، وراح يحدق في الشخص الذي حيّاه، وهو يتجه إليه قبل أن يعرفه.

- أهذا أنت، سي المانع؟ كيف حالك؟

- بخير والله.

- أريد أن أتحدث إليك ياسي المانع.

- ولكنني مشغول، عندي اجتماع يا عمي العابد.

- دقيقة واحدة لا غير.

- ألا تستطيع تأجيل ذلك، تعال إلى مقر القسمة.

- كلمة واحدة.

- تفضل.

- أتعتقد أن كل الشهداء ميتون بالفعل؟

- لا يا عمي العابد. إنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

- لا أقصد ذلك. أعني هل استشهدوا حقًا.

- هناك من ذهب ضحية، وهناك من ذهب خوفا وهناك من حتمت الظروف أن يحسب من الشهداء.

- لا أعني ذلك أيضاً. أعني أنهم ليسوا الآن على قيد الحياة، يأكلون الخبز ويمشون في الأسواق.

- الله أعلم.

- المسألة أكثر من هذا.

- ماذا؟

- شهداء القرية كلهم سيعودون.

- أفي صحة جيدة أنت يا عمي العابد؟ عندي اجتماع.

- لا. المسألة جدية. مصطفى ابنى، ذلك الذي كان مركزه في منزلك قبل أن تهجر البادية إلى القرية، سيعود هذا الأسبوع.

اصفرّ وجه منسق القسمة، وشعر برغبة في الجلوس، أو على الأقل أن يشدّ ظهره إلى الجدار أو عمود الهاتف. لست أدري كيف بلغه أنني وشيت به إلى العدو، وأن كمينًا نصب له في منزلي، فلم يحضر. ظل العسكر متخفياً في منزلي شهراً ولم يحضر، آخر الأمر اضطررت للانتقال إلى القرية. أرسل لي رسالة يقول فيها: ستُغتال إن عاجلاً أم آجلاً، يا عديم الضمير، يا خائن وطنه. لحسن حظي أنه مات بعد شهر.

- من أين علمت ذلك يا عمي العابد؟

قال مُتلعثماً، ففكر العابد لحظة وقال:

- وقف بعد صلاة الصبح عند رأسي، وقال لي: لم أستشهد، وسأعود إليكم في ظرف أيام.

- أهذا حلم.

- لم أر حلماً كاذبًا طيلة عمري يا سي المانع. ابني سيعود في ظرف عشرة أيام.

- هل قال لك شيئاً آخر؟.

- ذكر لي بعض الأمور وبعض الأسماء، لم أتذكرها مع الأسف.

- وهل ورد اسمي على لسانه؟

- لا أخال ذلك.

- عندي اجتماع في مقر القسمة، مع منسق الاتحادية الذي ربما يكون مصحوباً بمراقب من العاصمة، فالمعذرة يا عمي العابد.

- حتى تقول لى.

- ماذا أيضاً؟

- ماذا يكون موقفك كمنسق للقسمة، لو يعود كل شهداء القرية.

- آه أزور بهم كل المنجزات التي حققها الاستقلال، ثم أقدم لهم ملفات الانخراط في الحزب، مع التصريح بالالتزام للسلطة الثورية. وإذا كانت تتوفر فيهم الشروط والمقاييس لا بد أن تقبلهم اللجان كمشتركين على الأقل، وعندما يبرهنون على طاعتهم وإخلاصهم وتضحيتهم يرقون إلى خلايا المناضلين.

- هكذا!؟

- وماذا تريد أكثر؟ كل الناس سواسية أمام القانون.

- حتى المقدسون؟ حتى أعز شيء نفتخر به؟

- مرة أخرى يا عمي العابد نتم الحديث. إلى اللقاء.

- ضع في حسابك أنهم عائدون خلال هذا الأسبوع.

مرّ سي المانع في طريقه يحث الخطى، نحو مقر القسمة الواقع قرب البلدية، في حين واصل الشيخ العابد انحداره البطئ، وهو منشغل الفكر.

لست أدري ماذا يرددون في دقائق الصمت التي يقفونها ترحماً على أرواحهم، هل يقولون: تغمدكم الله برحمته الواسعة، أيها الأبطال الذين آثرتم الموت عن الحياة، لتسعدوا وطنكم وإخوانكم، وإن تضحيتكم ستكون قدوة لنا في مستقبل أيامنا وفي كل عمل نقدم عليه. أم يقولون أيها الرب إنك لطيف بعبادك، فلولا أنك أرحتنا منهم، لما تيسر لنا أن ننعم في هذه الحياة. حكمتك كبيرة واسعة، أيها الممجد، فلك منا الشكر والثناء. يقدم لهم ملفات الانخراط في الحزب، وتصاريح الالتزام، ثم يدرس وضعهم ليقبلهم كمشتركين. أردت أن أسأله وإذا ما كانوا ضباطاً سامين ومسؤولين كباراً. رؤساء مناصب وقادة ولايات، ومؤسسي الثورة، كيف يكون العمل معهم، إلاّ أنه كان مستعجلاً.

آه. إن الغم يملأ قلبي، ويخنق روحي.

- طاب مساؤك عمي العابد.

واتجه إليه مباشرة، أمسكه من ذراعه وأوقفه.

- نزلت من السماء. انزع عني حيرتي يا ابني. لا أحد غيرك يستطيع.

- خير إن شاء الله.

- أنت الوحيد الذي أثق فيه في هذه القرية، ماضيك أصفي من الحليب، مجاهد بسلاحه من الأول إلى الآخر. أعتز بحاضرك. لم تطلّق أم أبنائك لتتزوج بابنة غني أو خائن. ولم ترض ببيع ضميرك بخمّارة، ولم تطلب قرشًا على حساب إخوانك، حارس في ضيعة التسيير الذاتي من يوم تكوينها إلى الآن. لم تشهد شهادة الزور مع أي خائن لينال بطاقة النضال، رغم الإغراءات الكبيرة من ملاك قريتنا يا ابني.

- تبالغ يا عمي العابد.

- ورأس ولدي لا. هذا هو الحق.

- قلت إنك محتار يا عمي العابد.

- أتدري ماذا قال لي شيخ البلدية؟

- لا.

- على الشهداء إن بُعثوا للحياة أن يكافحوا من أجل حذف أسمائهم من سجل الأموات، طوال حياتهم.

- ابن خائن. ماذا تريد أن يقول أكثر؟

- وهل تدري ما قاله منسق القسمة؟

- لا والله.

- يقدم لهم ملفات طلب الانخراط، وبعد الدرس يقبلهم كمشتركين.

- اسمع يا عمي العابد. قلبي ممتلئ حتى الفيض، لا تزد عليه. يقول المثل: حيثما شاء الحي وجه رأس الميت. والحي هو القانون، هم الساهرون على تطبيقه، والميت هو، هو. - من هو؟

- لا تحرجني يا عمي العابد، إنك تعرف أنك عشت الحقيقة من أول الثورة حتى اليوم. أين التضحية؟ أين الاخلاص؟ أين الحماس؟ أين الأخوة؟ أين تجند الجميع من أجل الصالح العام؟ كل شيء بالبطاقة اليوم يا عمي العابد! الماضي الثوري لا بد من بطاقة تشهد عليه. النضال لا بد من بطاقة تثبته. حسن السيرة لا بُدّ له من بطاقة. الخيانة فقط، لم توضع لها بطاقة، نعرف كلنا الخائن ولكن لا نستطيع أن نواجهه لأن البطاقة هي الصح. حيثما شاء الحي وجَّه رأس الميت يا عمي العابد. هناك شيء يا عمي العابد، اسمه البيرقراطية. إنه آخر من ينتصر في نهاية الأمر.

- لكن يا ابني. هل عندنا شيء آخر نعتز به أقدس من مليون ونصف مليون شهيد؟ ماذا يبقي لنا أن كسرنا حرمتهم؟

- آه، نسيت أن أعلمك، مصطفى ابني تعرفه؟.

- وكيف لا. الله يرحم الشهداء. ولو أن عدم وجودهم في هذا الجو، رحمة في حد ذاته. - قلت لك إن مصطفى ولدي.

- أهاه، ماذا تقول عنه يا عمي العابد.؟

- سيعود خلال هذا الاسبوع.

أطرق منسق قسمة قدماء المجاهدين، هل الشيخ العابد مريض؟ لا. أنه على أحسن ما يرام. ما هذا الكلام الذي يقوله؟ الشيخ العابد رجل ثقة، يزن كلامه قبل أن يخرجه. ابنه استشهد ببريد الولاية إلى خارج الحدود. كان قدور معه. قدور يقول إن لغمين انفجرا من تحته، وأنه دفنه. مسألة الدفن هذه لم أفكر فيها قبل اليوم. إنها تثير الشكوك، وتطرح المسألة من جديد. قرب الأسلاك الكهربائية الشائكة، ووسط مراكز العدو المنبثة هنا وهناك، ينفجر لغمان، ويكون لقدور الوقت الكافي لدفن مصطفى؟ تكون لديه الشجاعة الكافية حتى على انتظاره إن أصيب بجرح؟ هل أن مصطفى عائد حقًّا أم أن الشيخ العابد هزه الشوق إلى ابنه، فأراد أن يعرف كل التفاصيل عن موته؟ لقد اتبع أسلوبًا خطيرًا في التحقيق، إن كانت هذه نيته.

- معنى كلامك كبير يا عمي العابد.

- كبير يا ابني. كبير جداً.

- ومن أين لك هذا؟

- علمت بذلك علم اليقين يا ابني.

- هل يعود من الآخرة أم من الدنيا؟

- لا تتورط مثلهم يا ابني. في كل مقابر الشهداء التي لا تخلو منها قرية أو دشرة، كتبت هذه العبارة: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون.﴾

- عند ربهم يا عمي العابد.

- كل ميت يذهب عند ربه، لكن الله لم يخصّ كل الأموات بالحياة، إنك أعقل من أن تكفر يا ابني.

- المهم يا عمي العابد أن مسألة العودة مطروحة.

- مطروحة من يوم استشهادهم يا ابني.

- والقانون اعتدّ لهم عدتهم بعد، لا أدري ما العمل هل من الأفضل أن يعودوا فرادي أم جماعيًا؟

- حسب ما هو مقدر لهذه الأمة يا ابني.

- قدر الأمة في القانون يا عمي العابد. الأمير عبد القادر - مثلاً - ظل شهيداً سبعة عشر سنة، وبقي بعد ذلك قرناً ونصفاً. لم يؤثر في مصير الأجيال ما فعلته بنفسها. بيدها. أنا أمامك. ألست شهيداً.

- إنني أكاد أسقط. رأسي يدور ركبتاي لا تقويان على حملي. لا تتحدث إليّ أكثر. وقبل أن يواصل الشيخ العابد انحداره في الشوق سمع منسق قسمة قدماء المشاهدين يقول له بصوت خافت:

- إن تمكنت من الاتصال به انصحه بعدم العودة إلى القرية. أرض الله فسيحة. قل له تدرب أولاً على الحياة في مكان آخر.

رغم امتلاء رأس الشيخ العابد، بشيء ثقيل كالرصاص ورغم خور قواه فإن التمييز لم يفارقه:

- لا أحد يرحب بعودتهم. لا المخلص ولا الانتهازي، لا المناضل، ولا الخائن. هؤلاء الناس ما بهم؟

أية عربة ركبوا؟ هكذا أغلقوا الحلقة على أنفسهم بكل ما فيها، بخيرها وبشرها، بسخطهم - وبرضاهم - أي غول بلّد إحساسهم؟ العربة التي ركبوها، لا تسير. انفصلت عن بقية القطار، وظلت في النفق، إنهم لا يدركون ذلك. لن يدركوا إلاّ عندما يقدم قطار آخر. ويصدم عربتهم ليدفعها أمامه.

- الشيخ العابد. وحّد الله. هل جرى لك مكروه؟

واتجه إليه. رئيس وحدة الدرك بالقرية، يحمل في يده محفظة جلدية سوداء.

- انتظر يا ابني. أريد أن أسألك.

- عفوك يا الشيخ العابد، عندي مسألة عاجلة.

- لكن أريدك في كلمتين لا غير.

- تفضل، ولو أنني مستعجل. زوجات الشهداء هؤلاء أقلقننا كثيراً. يجري الآن شجار في منزل إحداهن بالعصى والخناجر، حولت منزلها إلى خمارة، وها هي النتيجة. أنذرناها أكثر من مرة لكنها لم ترعو.

- هذا هو الموضوع الذي أردت أن أطرقه معك.

- ماذا يا الشيخ العابد؟ هل لديك معلومات جديدة تضيفها. إن الملف كبير بعد.

- إنهم سيعودون.

- من هم؟.

- الشهداء.

- يفعلون حسناً.

قال رئيس فرقة الدرك ثم أطرق يفكر. إذا ما عاد من يعرفني، فستكون المشكلة. لا أحد يعلم عن أسرى يوم المعركة التي استشهد فيها كل أعضاء فرقتنا. ما أن انطلقت الرصاصات الأولى، حتى رفعت يدي وركضت نحو العدو غير مبال بهتفات العودة خلفي. كنت حامي الفرقة بالمدفع الرشاش، وكان توقفي عن إطلاق النار يعني هلاكها. لم يستطيع أحدهم أن يلتحق بالمدفع الرشاش المحصن فسقطوا جميعاً.

تفاعل الشيخ العابد، وحدث نفسه: هو ذا الأول الذي يحبذ عودتهم، يا له من رجل طيب.

لقد كان مجاهداً حقيقياً ما في ذلك ريب. ثم رفع صوته:

- أجادّ فيما تقول يا ابني.

- اسمح لي يا الشيخ العابد أن أسألك بدوري. هل ترضى أنت أن يعود ابنك مصطفى رحمه الله وينتزع منك شرف أب الشهيد، ويضيع عنك كل الحقوق التي تترتب عنه: المنحة، رخصة سيارة الأجرة، السكن في أحسن مساكن القرية بكراء منخفض، الاحترام الذي توليه لك السلطات والشعب؟ حقاً أنك بدورك مناضل، سجنت وعذبت إبان الثورة، ولكن أي مناضل أو مجاهد، يتمتع بشرف أب الشهيد؟ فكر ملياً يا الشيخ العابد، كان عليهم أن ينضموا إلينا في يوم الاستقلال الأول، أما الآن فقد فات الفوت. فات الركب.

- ولكن إذا ما عادوا فعلاً، كلهم أو على الأقل بعضهم؟

- المسألة بسيطة جداً يا الشيخ العابد. نسلح نساءهم، ونوكل الأمر إليهن.

ثقل رأسه أكثر، وشعر بالغصة، وبالمرارة في حلقه، وبالحرارة في عينيه، فتدافع إلى الأمام مع الشارع المنحدر.

العربة منفصلة نهائياً، ولا أحد يشعر بذلك. إننا نريد أن نستأنف حياتنا بدون جزء كبير منا بدون وضع أي حساب لهم.

في كل ساحة قرية تنتصب لوحة تحمل ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ هل نقدر ذلك حينما نفعله أم المسألة لا تتعدى كونها شكلية، تزين بها القرى، وينفق فيها جزء من ميزانية البلدية.

ألا نكون كمن يسكن جوار مقبرة، يفضل أن ترعى بقرته فوق القبور. لكثرة ما يشقها ويطأها، ينسى أنها مقبرة، تضم رفاة أناس كانوا أحياء مثله، من بينهم أفراد كانوا أعزاء على قلبه. بل لعلنا، كمن يفتح مصنعاً للرخام بجانب مقبرة، لا ينظر إليها إلاّ من زاوية القبور المبنية وغير المبنية.

آه. آلام رأسي وقلبي يضاعفها الجوع. لم أتعشّ اليوم.

حينما تطرح مسألة عودتهم، لا يخطر لنا أنهم أصحاب الحق الشرعيين وحدهم. فلولا استشهادهم، لظل كل ما كان على ما كان.

نعم. لو أردنا فعلاً تغيير ما كان مثلهم، لما كُنّا أحياء. لدفعنا بأنفسنا بقوة في المعركة، ولما ظللنا نتحايل على الموت بشكل أو بآخر.

رباه. إذا ما أدرك العائدون هذه الحقيقة، ألا يندمون على تضحيتهم؟

رباه. إذا ما أدركت الأجيال القادمة هذه الحقيقة، أو تقدم على التضحية مرة أخرى؟. آه رأسي آه، قلبي، ركبتاي، معدتي.

- كان الله في عونك يا عمي العابد.

انتفض واتجه لي مصدر الصوت ويده ممتدة لتمسك بصاحبه.

- مساء الخير يا ابني. انتظر، انتظر. عندي معك كلمة.

- خير إن شاء الله يا عمي العابد، لقد وصلك المتأخر من منحتك على ما أعتقد.

- هذا هو الموضوع الذي أريدك فيه.

- لماذا لا تأتي إلى القبّاضة البلدية صباح الغد؟

- المسألة في الحقيقة لا تحتاج إلى حضوري. إنها عامة. مجرد سؤال أريد طرحه عنك.

- تفضل.

- إذا ما عادوا. ما يكون موقف الخزينة. أنت تعرف بصفتك مسؤول قباضتنا.

- من يعود يا عمي العابد؟

- الشهداء الذين تدفع الخزينة منحة موتهم لذويهم.

- لكن هذا مستحيل يا عمي العابد.

- بلغني من مصدر مطلع بأن شهداء القرية كلهم أو على الأقل بعضهم سيعودون. لا تناقشني في هذا. أجبني فقط عن موقفك كرئيس القباضة، تخرج من يديك منح.

- هذه مسألة لم تخطر بذهن أحد قط يا عمي العابد. ولكن في انتظار أن يثبت العائد حياته أمام المحاكم، وهذه مسألة تتطلب إجراءات طويلة تستغرق عدة سنوات، نوقف المنحة رأساً.

- وما تم دفعه يا ابني؟

- آه. هنا وجدتني أحتار. ولكن المسألة تبدو من وجهة النظر القانونية واضحة. لقد خرجت من الخزينة أموال بدون موجب، فلا أقل من مطالبة الخزينة للمعني، أو لورثته، بإعادة تلكم الاموال. وعلى ما يبدو لي شخصياً، فإن المسألة - وإن كانت قانونية - تبقي استمرار، خاضعة لمتصرف القباضة، ففي وسعه أن يقدم تقريراً، وقد يكون هذا التقرير واضحًا صريحًا. أو غامضًا مبهمًا، كما في وسعه أن لا يقدم أي تقرير ويكتفي بإشعار مرؤوسيه بأن المنحة سقطت قانونياً من صاحبها، وفي وسعه أن يقدم بنفسه قضية أمام العدالة. والله. المسألة مع أنها واضحة قانونياً، فإن لها أوجهاً كثيرة.

- أشكرك يا ابني. فهمت من كلامك أن عودتهم تطرح إعادة النظر في كثير من الأمور.

- آه هذا واضح، عودتهم مشكلة في الحقيقة.

على كل يبقي لهم الحق كقدماء مجاهدين وليس كشهداء.

بالإضافة إلى أن اللجنة الوطنية التي تمنح الشهادات البلدية عن الماضي الثوري قد أنهت أعمالها فإن عليهم ليكونوا ملفات الطلب، أن يحصلوا على أوراق عديدة، لا تتيسر لهم، إلاّ إذا حصلوا على شهادة الحياة. من وجهة النظر القانونية البحتة، يمكن ألا يحصلوا على هذه الشهادة إطلاقاً. تصور أن المجتمع، وفي مقدمته ذووهم ينكرهم ويتجاهلهم أو حتى يرفع دعاوى ضدهم بصفتهم محتالين. أقصى ما يفعلونه هو أن يخضعوا للأمر الواقع ويظلوا هامشيين. سينتحر الشرفاء منهم ولا شك.

- ولكنهم كلهم شرفاء، يا ابني. إنهم أقدس شيء نعتز به.

- لا من عاد من القبر وأتى بالخير، يا عمي العابد.

تضايق الشيخ العابد، وواصل انحداره، في الشارع الذي بدأ يقترب من مركز القرية، ليستأنف صعوده إلى طرفها المقابل.

- مساء الخير أبي العابد.

اتجه إلى مصدر الصوت الذي كان قريباً منه، وتشبث بصاحبه وهو يتمتم:

- الخير والهناء يا ابني.

- أحدث لك مشكل يا أبي العابد.

- آه. هذا أنت يا - الكومينيست ؟

- مرّ ذلكم الوقت يا أبي. الآن مسؤول الفرع النقابي لعمال السكك الحديدية لا غير. أتذكر يا أبي ما كان يقوله الضابط، وهو يعذبنا معًا.

- أذكر يا ابني.

- ما زلت أسمع ذلكم الكلام حتى الآن يا أبي.

- عذبوك أكثر منا. كانوا يدبّرون قتلك.

- قرر مسؤول القسمة أن يبعدني من الحزب والناس يا أبي العابد.

- ولكن لماذا؟

- قلت إنك تذكر عبارات الضابط: الجرثومة الخطيرة في هذه الحركة.

- نعم.

- هذا ما يتردد الآن أيضاً.

- يطول الدهر، ويتقطع - الطفر - يا ابني. أريد أن أسألك.

- تفضل. خير إن شاء الله!

- إذا ما عاد الشهداء؟

- أتعني كل الشهداء؟

- نعم.

- يرتفع عدد السكان أكثر، وتتراكم المشاكل الاجتماعية.

- ولكن ليس من هذه الزاوية. أريد أن أقول، هل نقبلهم أم لا.

- ستوجد طريقة لقبولهم، يستدعون رأساً إلى مراكز التدريب، ويلبثون هناك عدة سنوات بدون سلاح وبدون أي اتصال بالخارج، ثم يشرع في إطلاق سراحهم، فرداً فرداً، بدءاً بالضباط السامين الذين تمنح لهم قروض هامة، أو يعينون رؤساء مديرين على الشركات التي تكون قد انتشرت أكثر يومها. ثم يأتي دور الجنود البسطاء، الذين يوزعون على مزارع التسيير الذاتي التي تقتطع لهم بكل جدارة واستحقاق.

- أهذا موقفك يا ابني؟ إنك أنزه من أن تقول هذا الكلام.

- لكنك لم تسألني عن موقفى الشخصي يا أبي العابد لقد قلت هل نقبلهم أم لا.

- وما موقفك؟

- اسمح لي أن أحتفظ به يا أبي العابد. لا أستطيع أن أعلن عنه دون الاتصال بهم أولاً وقبل كل شيء.

- ولكن هل ترحب بعودتهم أعني؟

- من الناحية النضالية، فحسب الأفكار التي يعودون بها. أما من الناحية الاجتماعية، فاسمح لي أيضاً أن أحتفظ برأيي الشخصي. أنا نقابي يا أبي العابد، والأمور مختلطة متداخلة، بحيث يصعب اتخاذ موقف ارتجالى هكذا.

شكر الشيخ العابد مسؤول الفرع النقابي، وواصل طريقه، مع المنحدر، وهو أشد حيرة من قبل.

هذا ليس سلطة، فلماذا لا يرحب بعودتهم. إنه لم يعلن عن معارضته. تحفظ مع ذلك. ثوري مخلص، أعرف عمله الثوري قبل أن يلقى عليه القبض وأشهد على صموده في المعتقل أمام العذاب الشديد. لماذا لم يتحمس لخبر عودتهم، ألأنه في شك من أنهم لن يعززوا صفه، كما يتوقع منهم؟ الله أكبر.

حتى الذين ضحوا بأرواحهم من أجل إسعادنا، نشكّ في موقفهم من القضايا الثورية.. أية أفكار يمكن أن يعودوا بها غير التي ذهبوا بها، غير التي ماتوا من أجلها؟. إذا كنا نحن الأحياء، قد وقعنا في فخ الخونة والانتهازيين وغرقنا في متاع الحياة ولم ننتبه إلى أن العربة التي نركبها فصلت من القطار، فهؤلاء الأعزاء المقدسون بالإضافة إلى أنهم أخلصنا، لأنهم ضحوا أكثر منا، لم يلوثوا بمشاكل الحياة بعد.. إنهم القطار الذي يلج النفق ويدفع العربة المنفصلة أمامه.

لعل الاصطدام يخرج العربة، والقطار عن السكة. لعل القطار يأتي من الجانب الآخر ليعيد العربة إلى الخلف.

الله أكبر.

حتى أنا بدأت أشك، بدأت أتفلسف في أعز وأقيم شيء نفتخر به. (الكومنيست) لعين، يريد أن يعرف أفكارهم أولاً، ليعلن عن موقفه.

- آه، ما تزال هنا يا أبي العابد؟

- أهذا أنت يا (الكومنيست) ؟

- نعم، نسيت أن أقول لك - فيما يتعلق بهم - يمكن أن نقبلهم بشكل آخر. مثلما قُبل المجاهدون والمناضلون العائدون من الجبال والسجون والمنافي الاستقلال، نقيم الأفراح والأعراس، والمهرجانات لاستقبالهم.

- لا. لا. إلاّ هذا.

قاطعة الشيخ العابد في حنق، ثم ابتعد عنه وهو يتمتم.

- لا تحدثني أكثر أيها اللعين.

- أبي ما بك؟

خاطبه ابنه وهو يمسك من ذراعه وسط القرية، مفترق الطرق.

- هذا أنت؟ من أين خرجت؟

- من المنزل، كنت أبحث عنك، لم تعُد منذ غادرتنا هذا الصباح، أين كنت؟

- لماذا تسأل عني؟ اسمع إذا ما عاد مصطفى أخوك ماذا تفعل؟

- يعود مصطفى أخي؟

- نعم يعود. يعود. إنه عائد هذا الاسبوع.

- وماذا تقول أنت يا أبي؟

- اغرب عن وجهي .. الذنب ليس ذنبك، إنه ذنبي أنا، ذنبنا جميعاً. أخبر أمك وزوجتك وأبناءك.

خلص ذراعه من قبضة ابنه، ومرّ في طريقه، يردد:

- لا بد أن أتحدث مع إمام المسجد، هو أدراهم. أدرانا جميعاً.

واتجه مباشرة نحو المسجد، انتظر الإمام حتى فرغ من صلاة العصر وأشار إليه بيده:

- أريد أن أتحدث إليك.

- ألم تكن تصلي معنا؟

- لست متوضئاً. أريد أن تفتي لي.

- في أي أمر.

- تعلم أن ابني مصطفى لم يعد مع العائدين.

- استشهد.

- لنقل ذلك. زوجته التي فارقها بعد أربعة أشهر من الزواج انتظرت في بيتي حتى تأكدنا من استشهاده.

- وبعد ذلك؟

- زوّجتها لأخيه الأصغر، وله منها أربعة أطفال.

- أو فعلتم هذا؟ أو أتيتم هذا الأمر؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله!

- وماذا فيه يا سيدي الشيخ؟

- حرام. كفر. زنى. أعوذ بالله.

- ماذا تقول؟

- كيف تجرؤون على تزويج امرأة غير مطلقة.

- لكن زوجها ميت ولدينا وثائق موته وقد عقدنا عند القاضي.

- هذا كفر يا الشيخ العابد. كفر يا الشيخ العابد. كفر بالله ورسوله وبكتابه. ابنك شهيد، والشهيد غير ميت، إنه حي عند ربه يرزق. ألم تقرأ الآية المكتوبة في كل ساحات القرية؟. وثيقة الموت هنا، تلاعب قانوني من أجل ترسيم أشياء لا معنى لها من حيث الشرع. عندما يكون الأمر يتعلق بزوجة شهيد، فلا بد من الطلاق. هذا زنى. أعوذ بالله، كنت أظنك أعقل مما يتكشف لي يا العابد، حتى الغيبة وإهمال بيت الزوجية لا تنطبق عليهم لأننا نعرف مقرهم. يا للكفر والإلحاد..

- وما العمل يا سيدي الشيخ؟

- يقام الحد على الزاني والزانية.

- هكذا يا سيدي الشيخ؟

- ويبقى الخيار للزوج الأول في الطلاق أو في إعادة زوجه إلى بيته. المسألة بالنسبة إليكم تتعدى حدود الزنى. إنها كفر بالقرآن الكريم وبآياته الصريحة. أو لا تعلمون أن حياة الشهداء تجمع عليها كل الأديان والنصارى ينتظرون إلى اليوم عودة المسيح لأنه شهيد. ينبغي أن تعلنوا إسلامكم من جديد وأن تكفروا وتتوبوا وتستغفروا، عله سبحانه وتعالى يقبل منكم.

- مسألة الطلاق يبدو أنها أهون من مسألة الكفر هذه يا سيدي الشيخ.

- وكيف ذلك؟

- الزوج الأول. ابني مصطفى سيعود هذا الأسبوع.

- إنك لما تزل تكفر يا رجل.

- ولكن.

- أو تظن ابنك المسيح أو المهدي، أستغفر الله. اخرج من المسجد أيها الكافر.

- ولكن سيعود. لقد..

- أخرج. جرمك من الكبائر.

غادر الشيخ العابد المسجد ذليلاً منكسر الروح، مطاطئ الرأس والقلب واتجه إلى أسفل، حيث تمتد سكة القطار.

بعد أن انفض الاجتماع في مقر القسمة، وبقي وحده شيخ البلدية عدوي اللدود، علاقتنا مقطوعة منذ ستة أشهر. لكن المسألة عاجلة، جد عاجلة. ترى إذا ما دعوته إلى اجتماع تنسيق هل يحضر، أم يعتذر كعادته؟

ورفع سماعة الهاتف، طلب مسؤولي المنظمات الوطنية النقابة أولاً، ثم قدماء المجاهدين، ثم اتحاد النساء، الكشافة، ثم قائد وحدة الدرك، وتردد قليلاً ثم تجرأ على طلب شيخ البلدية.

- آلو البلدية؟

- هنا الكاتب العام.

- أريد أن أتحدث إلى سي عبد الحميد المانع منسق القسمة هنا.

- انتظر قليلاً حتى أنظر ما إذا كان هنا.

- نعم.

- لا. خرج، ترى في أي أمر تطلبه.

- هناك تشويش كبير بصدد الحدوث، عندنا الآن في مقر القسمة اجتماع مع كامل السلطات المحلية لا بد من حضور سي عبد الحميد.

- آلو ها هو قادم. انتظر.

- آلو سي المانع.

- آلو سي عبد الحميد كيف الحال.

- بخير وأنت.

- يا سي عبد الحميد اتصلت بك لأدعوك إلى اجتماع سينعقد حالاً بمقر القسمة، رغم ان العلاقات بيننا منقطعة فإنني لا أنساك، لست مثلك.

- يا رجل لو قلت لي هذا الكلام من السابق لقضي الأمر. تعال، وسنرى. المصلحة العامة فوق كل اعتبار يا سي عبد الحميد، ونحن زيادة على كل شيء بيننا صلة دم.

فتح منسق القسمة الجلسة: ورحب كثيراً بشيخ البلدية وبقائد وحدة الدرك، ودخل الموضوع مباشرة.

- موضوع اجتماعنا هذا، هو التصدى لحركة تشويش كبرى تدبر في قريتنا، وربما في قرى أخرى، وأنا على يقين من أن لها صلة بالخارج، فأحد عناصر هذه الحركة الذي تم اكتشافه بعد، متصل بالخارج، ويتلقى رسائل من هنالك، وقد وردته واحدة اليوم فقط.

تقوم حركة التشويش الكبرى هذه على الرغم أن الشهداء الأبرار رحمهم الله سيعودون من الآخرة في ظرف قريب، وأن سبب عودتهم، هو إصلاح الأمور، التي يزعمون أننا عجزنا عن إصلاحها، أو أننا، نحن، السبب في إفسادها.

تصوروا جيداً ماذا يعني هذا الكلام. يعني عصيان مسلح يشترك فيه مليون ونصف من خيرة أبناء هذه الأمة، قصد قلب الأوضاع رأسًا على عقب.

طبعاً عودة الشهداء أمر مستحيل، ولكن من يدري فقد يكون هناك متمردون التحقوا بالجبل، كما أنه قد يكون هناك جيش كبير نزل من الخارج لاحتلال بلادنا التي دفعنا ثمناً باهظاً من أجل استقلالها وحريتها وعزتها.

إنني كمناضل ملتزم مع الثورة منذ سنة 1945 وكمسؤول انتخبت من طرف القاعدة، وأتمتع بثقة الاتحادية والمحافظة وقيادة الحزب في العاصمة، رأيت من واجبي ـ ومن اليقظة، أن أدعوكم لنضع حداً لهذه الحركة في مهدها.

لا بد من إلقاء القبض على الشيخ العابد، واستنطاقه وإشعار السلطات العليا في الحال.

- أنا متفق معك في هذا الاقتراح. لقد اتصل بي الشيخ العابد هذا المساء وقال لي كلاماً محيراً، خِلْتُ في الأول أن به مسا، لكن اتضح لي أن الرجل مشوش عن عمد. قال شيخ البلدية، فانبرت مسؤولة الاتحاد النسائي:

- لو تدرون ما يقال في البيوت. فعلاً لقد حدثت بلبلة كبيرة. والنساء كلهن في حيرة عظمى، يقال إن الشهداء سيعودون هذا الأسبوع مسلحين بالسيوف وبالمدافع وبالقنابل وبالرشاشات وفي يد كل منهم قائمة طويلة فيمن يجب أن يقتله. وأنهم لا يموتون مثلنا بالرصاص أو بالطعن أو حتى بالنار. يؤدون رسالتهم ثم يحملهم الله إليه مرة أخرى.

- ألم أقل لكم إن المسألة خطيرة.

أكد منسق القسمة، فقال مسؤول الشبيبة.

- لم أعد أستطيع السيطرة على الشبان، تعرفون أنهم من قبل يحملون أفكاراً مستوردة من الخارج وهم ينتقدون المسؤولين بشدة.

- نعم. نعم.

قال منسق القسمة فواصل مسؤول الشبيبة:

- وقد أعلنوا موقفهم مع الشهداء أو بالأحرى مع التمرد. لقد أحسنت إذ دعوتنا لهذا الاجتماع يا سي المانع.

- نحن الكشافة لم يؤثر فينا هذا الهراء. وعلى أي حال، فقد قررنا أن نشكل فرق اليقظة لإعلام السلطة بكل غريب يدخل قريتنا، وبكل حركة مريبة.

- نحن مطمئنون إلى الكشافة.

قال منسق القسمة، ثم التفت إلى قدماء المجاهدين والفرع النقابي ينتظر موقفهما.

- هناك بلبلة حقاً، لكن الشيخ العابد المسكين برئ. إن ذكرى ابنه وضعف صحته فقط ما يدفعه إلى تصور أن ابنه سيعود هذا الاسبوع.

قال منسق قسمة قدماء المجاهدين فقاطعه شيخ البلدية:

- يقول جميع الشهداء. والرسالة التي تلقاها اليوم من الخارج؟ وأضاف منسق القسمة:

- يمكن أن نقول إن قدماء المجاهدين أو على الأقل مسؤولهم متواطئ مع حركة التشويش.

- ماذا تقول؟

- اسكت لم أعطك الكلمة. وما موقف النقابة؟

- تعلمون أن العمال لا يهتمون بمثل هذه الأمور، الشيخ العابد يجوز أن يكون مريضاً، كما يجوز أن يكون قد تلقى رسالة من ابنه. لعله كان يعالج في الخارج، ولنفرض أنه كان مصاباً بفقدان الذاكرة إثر حادث أو صدمة ثم استعاد ذاكرته. هذا شيء غير مستحيل الحدوث. وقد كانت الثورة ترسل المعطوبين إلى الخارج للعلاج.

- أنت معزول من الفرع النقابي باعتبارك متواطئاً مع الخارج، يا قائد وحدة الدرك نظراً إلى حركة التشويش السافرة، فإنه لا بد من إلقاء القبض على العابد بن مسعود الشاوي وعلى كل من مسؤول قدماء المجاهدين، ومسؤول الفرع النقابي.

- هذه مبالغة على ما يبدو لي. المسألة لم تصل حداً من الخطورة كما تتصورون، الشيخ العابد مريض ما في ذلك من شك، تبقي مسألة الرسالة هذه، فيمكن أن نستدعيه ونطلبها منه. لعلها كما قال مسؤول الفرع النقابي..

- والبلبلة التي حدثت وهلع النساء؟

قالت مسؤولة النساء متحمسة، فرد عنها قائد وحدة الدرك وهو يبتسم:

- لن يقلل من المشاكل التي تحدث في القرية - كما تعرفين - يا خالتي عائشة، إلاّ مثل هذه الدعايات من حين لآخر. لقد قتل هذا المساء فقط ثلاث نساء، زوجة شهيد، وفتاتان واحدة في السادسة عشر وأخرى في السابعة عشر.

- لا بد من إلقاء القبض على هؤلاء الثلاثة.

قال منسق القسمة، وأضاف شيخ البلدية:

- المسألة خطيرة، وسأشْعُر حالاً مسؤول الدائرة ولربما الوالى نفسه.

- كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أستدعى الشيخ العابد، وأطلب الرسالة منه.

قال مسؤول الدرك، فأكد منسق القسمة:

- ينبغي أن يتم ذلك هذا المساء بالذات. الآن إن كان في إمكانك.

- سأخبركم بعد قليل بنتيجة التحقيق، اطمئنوا.

أكد مسؤول الدرك، فقال شيخ البلدية:

- إنني وسي المانع في انتظارك هنا بالقسمة.

- الجلسة مرفوعة.

***

عندما خرج قائد وحدة الدرك، قابلته حركة غير عادية الناس، رجالاً وأطفالاً، وعجائز. يتراكضون إلى أسفل، نحو سكة القطار، وهم يهتفون:

- الشيخ العابد. الشيخ العابد.

ركض بدوره، وعند السكة وجد دركيين آخرين يقفان على رأس جثة الشيخ العابد ويبعدان الناس.

- لقد ألقي بنفسه أمام القطار.

قال السائق.

- رآه بعضهم، وهو يلوح بهذه الرسالة.

قال دركى، فتناول قائد الوحدة الرسالة وتمتم:

- إنها فعلاً.. سبحان الله العلى العظيم .

الطاحونة

بالرغم من حرارة الشمس الشديدة، شمس الظهيرة وشمس جوان (حزيران)، لم أهدأ في مكان، ولم يستقر لي قرار. لم أكن قلقاً أو مضطرب البال، لا بالعكس، بحثت في أعماق نفسي عن أثر للقلق والاضطراب، فلم أعثر. كنت هادئا هدوء غابات الجبال المحيطة بنا، بعد أن توقفت الحرب الطويلة، المريرة، ومع ذلك لا يقر لي قرار.

طفت بعدة مكاتب، لكنها كانت خالية، الجنود نيام، أو على الأصح مبعثرون، في الخيام وفي البنايات الخشبية والحديدية، وتحت الأشجار هنا وهناك. بعد صبيحة مرت ساعاتها ثقيلة، ثقل الفقر، والاضطهاد والعسف، لأنه ما من أحد يعرف بالضبط، ما هو عمله، وما هي فائدته إن عرفه. المساكين يحيون، نحيا، كما لو كنا في معتقل رهيب، لا في مركز من أهم مراكز جيش التحرير، اليوم، وأهم قلعة للعدو في قلب الأوراس، بالأمس القريب.

هذه المكاتب الخالية من كل أثر للحياة، تعبر عن نفسياتنا. الغبار ينتثر على كل شيء، الجدران، المقاعد، آلات الرقن، المناضد، حتى أقلام الرصاص. والأوراق مبعثرة في كل مكان: الأرض، الرفوف، المناضد، كان بعضها أبيض يليق للكتابة، أو لم تلوثه أقدام. يبدو أنها حائرة، وكان بعضها قد كتب عليه سطر أو اثنان، استطعت أن أحزر بكل بساطة، أن كلماتها لا تتجاوز ما حفظناه منذ السنوات الأولى لاندلاع ثورتنا (الجمهورية الجزائرية) (جيش وجبهة التحرير الوطني) وبعض كلمات أخرى أحفظها عن ظهر قلب.

مسكينة هذه المكاتب، لا تستطيع أن تنظم نفسها بنفسها. أول مهمة تنجزها الثورة هي تحطيم الشكل القديم للمكاتب. خطر ببالي، مساكين أيضاً أصحاب هذه المكاتب، أبناء الفلاحين الفقراء والعمال الكادحين ومعلمو القرآن، الذين تحولوا إلى جنود وإلى ضباط بحكم البذلة

العسكرية، لا تستطيع نفسياتهم أن تنتظم عفوياً ومن تلقاء نفسها. الثورة ليست عاصفة هوجاء تقتلع الأشجار وتخرب السدود وتحطم القرميد، إنما غيث سحساح، يجرف الطحالب والأغصان الهشيمة ويغذي العروق الحية، لتزهر الحياة وتخصب وتثمر.

آه. لو كلفت بمهمة لحققت... تفكر في المسؤولية؟ الناس كلهم متعطشون للمسؤولية؛ فحين يفقد العمل الثوري محتواه وتبقي المسؤولية شرفاً وأوسمة، يتسابق إليها كل خامل. لكنني فقط أريد أن أعمل. أن أنجز شيئاً، شيئاً يشبه المعجزة في هذا الوسط، أنا لا أريد المسؤولية لذاتها ولا أريدها لنفسي، إنما أريدها لإمكانيات الإنجاز التي تسمح بها..

(...)

خطر ببالي، وقلت في نفسي:

- الطاحونة تدور، والجعجعة تملأ الآذان.. وما من أحد ها هنا في حاجة إلى الطحين، ولا إلى الحجة.

لم تؤثر فيَّ هذه الخواطر، فقد ألفتها وألفتني، وظللت هادئاً تاركا الحرية لقدميّ تجرانني حيث شاءتا، وليديّ تسويان القبعة على رأسي، وتحجبان بها الشمس عن عيني... لا. الحق أقول الشمس ليست هي السبب في عبث يدي بالقبعة، فمن عادتهما أن تضعاها على جبيني حتى في الليل. وقد كان ذلك يحلو لي باستمرار، ربما لأنه يخفي عيني، أو يميزني عن سائر الجنود ولربما لأنه يستفز المسؤولين ويحرجهم، فيتحاشون الحديث معي، وهذا ما أريد... لا لشيء إلا لأنني سئمت الجعجعة.

بينما كانت قدماي منهمكتين في عملهما، ويداي كذلك، انطلق بصري متخلصاً من باطني... العلم يرفرف، متحدياً ثقل الجو، كأنما هو بدوره يريد إنجاز معجزة ما، أو كأنما يريد أن يلفت الأنظار إلى أن العلم المثلث اختفى من الأوراس إلى أبد الآبدين. لا. لن يفهمك أحد أيها العلم، وكفاك أن تحيَّى في الصباح وفي المساء، فإن الطاحونة تدور، والناس منشغلون بالجعجعة، ولن تكون حجة أنت أيضا...

انتقل بصري دون أن أدري للجبال، كانت تشكل دائرة تحيط بالمركز، ترتفع تارة، وتنخفض أخرى، بيد أن قممها كلها تتصل مباشرة بالسماء. في الليل تمكر بالقمر فلا يطل علينا إلا حين نكون في غنى عنه، وفي الصباح تؤخر عنا الشمس فلا تداعبنا أشعتها إلا حين نكون قد بدأنا نسترخي، وفي المساء تسارع بإخفائها فيداهمنا الليل قبل الأوان. هذه الجبال أشبه ما تكون بالمسؤولين، سالت في كل شبر منها دماء شهداء، وانطلقت من وراء كل صخرة بها، رصاصة من بندقية رجل، وعصفت بكل شجرة فيها قنبلة، أو زفرة حرّى. لكنها مع ذلك تمكر بالقمر وبالشمس فلا يطلان إلا بعد فوات الوقت...

بدأت تهذي، وتكفر، هذه معنوياتك تهوي، إلى القعر... لمت نفسي.

وانخفض بصري، رويداً، رويداً، حتى استقر قرب المطبخ... كان هناك صبيان نحيفان، حافيان قذران تغطي جسميهما أسمال بالية لا هي بالمدنيّة، ولا هي بالعسكرية، تتدلّى شعورهما على عيونهما، في يد كل منهما علبة طماطم كبيرة، من مخلفات جيش العدو، ثقبت وألصق فيها خيط قذر، فصارت سطلا لا يفارق أيدي الأطفال إلا حين يتمددون ليداهمهم القمل والنوم، والأحلام اللذيذة...

اقتربت منهما، فبادرني أحدهما:

- عم. أعندك خبز..؟

هذا الصغير الذكي، ينظر إلى يدي الفارغتين وإلى جيوبي الشاحبة ويعرف أنني في الخلاء مثله، ويرى أنني ككل مَن ها هنا أدخن العرعار، بينما جنود (القوات المحلية) يدخنون التبغ الأمريكي.. يسألني هذا السؤال؟

هذه تحية. لا. كلمة السر. لا . تبرير لوجوده داخل المركز... بطاقة تعريف وهوية.. المسكين خائف.

هذه الأنوف الدقيقة المستقيمة، وهذه العيون الزرق، وهذه الذقون الحادة، والوجوه المستطيلة.. هذه السيماء البربرية الخالصة، هؤلاء أحفاد الكاهنة (...) البشر حين يجوعون يُذّلون ولو كانوا أحفاد الكاهنة...

- من أين يأتيني الخبز يا عزيزي؟ لكن سأعطيكما بعض الدراهم فانتظرا حتى نتعارف...

تهالكت قرب الصبيين في ظل جدار المطبخ، وخيل لي أنني أسمعهما يهتفان":

- ما أطيب هذا الجندي.

كان أحدهما يحدق فيّ بعينين طروبتين، وابتسامة عذبة بريئة تترقرق على شفتيه. أما الآخر، فبدا لي منقبضًا، متضايقًا، حرجًا لايرفع بصره عن الأرض، تجثم على محياه عبسة خجول.

آه. يا صغيري العزيز، ألا يسرك وجودي؟ لو تعلم كم أنا أحبك.

تأملته برهة ثم قلت محاولا إزالة الكلفة بيننا:

- ألا تقرآن؟

- نقرأ في (الجامع) القرآن عند (الطالب) ونقرأ في المدرسة أيضًا.

- في المدرسة أيضًا؟

- في مدرسة جيش التحرير.. لا نقرأ كثيراً.. وسيدي يعرف الفرنسية.. والبنات أيضاً يقرأن معنا.. وحتى الأطفال الكبار.

- شيء حسن جداً.. بداية طيبة هذه، ستتحسن الأمور المستقبل القريب.

- ويكثر الخبز أيضاً... أليس كذلك ؟

- نعم. نعم. ستتبدل الحياة تماماً.

- لكن يقولون إنكم سترتحلون؟ بالأمس ارتحل الجيش الفرنسي.. واليوم...

غمغم الصبي، ثم أطرق يفكر كالمنكوب، وفهمت دون أن تتكلم أنه يقول متألماً:

- ترتحلون أنتم أيضًا.. ومع ذلك تظن أن الحياة ستتبدل تمامًا، أي أن الخبز سينقطع؟

- سيكثر الخبز.. لن يتصدق عليكم به أحد، لكن ستنالونه باستحقاق. انظر إلى هذه الأراضي الشاسعة، إنها ملكنا جميعاً، وهي لنا، تعطينا إلى الأبد ما يكفينا خبزاً وخضروات وغلالا. كان الاستعمار يشغلنا عن أرضنا، لكننا اليوم...

- أبي استشهد...

وتوقفت الكلمات في حلقه.

قيل لي إن كل الأطفال الذين أراهم يتهافتون على المطبخ، صباح مساء في انتظار ما يتبقي من فضلات في صحون الجنود، أبناء شهداء.

- وأنا لا أقدر على حراثة الأرض... أريد الخبز، والقراءة.

- ما اسمك يا عزيزي؟

- (بسعو).

- اسم جميل جداً. وأنت يا ولدي، لماذا تسكت كثيراً؟ ما بك؟

- (قاقا).

لفظ اسمه بصوت لا يكاد يسمع.. إنه خجل لست أدري لِم؟

حاولت تناسيهما والخبز معهما، لكن (زوجة وزير في حكومتنا أنفقتْ بتونس في ظرف يومين قرابة المليونين). و(مصالح القادة الجاسوسية تنفق يومياً عشرات الملايين...). و(القوات المحلية تعوم في الذهب). و(العالم كله يتبرع علينا) و(الخيرات مخزونة عند الأغنياء)، و(أبناء الشهداء يتضورون جوعًا).

الطاحونة تدور، الجعجعة تملأ الآذان.. ولا أحد يسأل عن الطحين، والحجة ينبغي أن لا تقوم.. والجبال تمكر بالقمر والشمس فلا يطلان إلا بعد الفوات... آه. لو كلفت بمهمة.. تفكر في المسؤولية؟ تطمح إليها؟ لو يسمعك أحد يقهقه.

- (قاقا) ما بك ؟ ألا يسرك وجودي قربك؟ وأبوك، أين استشهد؟

احمرت وجنتاه، وتندّى جبينه عرقاً، اضطرب السطل في يده.. وكادت عيناه تغوران وفجأة بادرني:

- ليس لي أب، لا أب لي، لا أعرف أباً.. أبداً أقسم لك.

واعتراه الخجل.. هذا الصوت... (قاقا) ماذا يخفي وراء كلماته؟

لو كنت ابن شهيد لأنكرت ذلك، وأقسمت على أنني لا أعرف لي أبا.. ما أحكم (قاقا).. أما (بسعو)...

ألقيت عليه نظرة، فوجدته يبتسم في خبث.. (بسعو)، عمّ تنطوي بسمته ونظرته.

التقت عيون الصبيين ففهمت أن هذا الحوار يدور بينهما:

- أأطلعه على الحقيقة؟

- (بسعو) كن عاقلا.. إياك، سأقاطعك منذ اللحظة.

- لكن. إنه طيب.. وسيعطينا النقود...

- سأتركما إذن يا (بسعو).

قال (قاقا) وطأطأ رأسه مرة أخرى، واعتراه الخجل أكثر...

هل كان أبوه قائداً بطلا؟

بالأمس سمعتهم يتحدثون عما تقاسيه زوج ابن بولعيد وابنها من فاقة وعوز، اقتسمت الثورة والاستعمار أموال ابن بولعيد الطائلة. الاستعمار ارتحل، وابناء الشهداء يتضورون جوعاً، والطاحونة...

شعرت بالدوار ورفعت بصري إلى العلم، يرفرف وتشخص لي (كافكا) يوقع على المسخ... لا. (هوغو) الأيدي القذرة، يطلق الرصاص. لا (جوبيتر) الذباب. منهوشاً. كلا (بابلو) لمن تدق الأجراس يصارع السقوط.. لا. الأمير عبد القادر يوقع وثائق الاستسلام. لا. وبدا لي أن قدمي تغوصان في الوحل وأنني انجذب فأنجذب إلى أعماق هاوية سحيقة.

لست أدري كم من لحظات مرت حين استفقت على (قاقا) يسترق ربع نظرة إلي، خفض بصره فربت على كتفه.. كانت عظامه ناتئة حادة.

- (قاقا) إنني أخوك. أنظر إلى (بسعو) كيف هو مرح. تأكد أن كل شيء سيتبدل عما قريب.

وتساءلت في نفسي هل أومن بما أقول، ثم أضفت:

- أصحيح أنك لا تعرف أباك؟

- أبوه حركي، وهو الذي قتل أبي !

قال بسعو، هازئاً، فخوراً، متشفياً، ضاغطاً على الكلمتين الأخيرتين: قتل أبي.

انتفض (قاقا) كما لو أن قنبلة غير متوقعة انفجرت. ونهض واقفاً يحاول الهروب.. تشبثتُ بذراعه الصغيرة، وأجلسته بعد لأي، فارتمي عليّ، وانفجر باكيًا.

ليس من حق (بسعو) أن يفضحه أبداً.. لكن حين نظرت قرأت في عينيه:

- قتل أبي.

- لكن يا (بسعو) ما ذنب (قاقا)؟ ليس هو الذي قتل وليس هو الحركي، ولو كان كبيرًا لالتحق بالثورة، ولتغيرت حياته رأساً على عقب.. أكنت تقتل الحركيين ياقاقا لو كنت في الغابة مجاهدًا؟

استعنت بكل ما أملك من خبرة، وبكل اللهجات، لأقنع الصبيين بما يبدو لي أنه الحقيقة.. وبعد جهد احتضنني (قاقا) وطبع على جبيني قبلة حارة هامساً:

- أنت طيب.

تذكرت قصة الرفيق (ماكرنكو): قصيدة تربوية. منذ أن أحببت الأطفال، وبتّ أحلم لو تتاح لي فرصة فأطلق نظريات (ماكرنكو) في التربية.

قد تتاح لي فرصة ذات يوم... هذه الجبال المحيطة بنا في شكل دائرة، تمكر بالشمس والقمر، فلا يطلان إلا حين نكون في غنى عنهما.

- غداء اليوم لذيذ فلم يبق منه شيء نأخذه، لم يخلف أي جندي شيئا في صحنه.

قال (بسعو) ضاحكا، فتبسم (قاقا)، ونقر سطله:

- خاو كما ترى.

- أمهاتنا ينتظرن، وأخوتنا يبكون.

أضاف (بسعو).

انطلق بصري نحو السماء.. العلم يعربد.. مع ذلك ضحكت.

تأملت مركز التجمع حيث يقطن الصبيان وكل أهالي الجهة. أكواخ قاتمة يغطيها الدبس والتراب، بعض ثياب منثورة على الأشجار والصخور تجف. كانت ألوانها رغم التعاسة ناصعة مزهوة، لا أثر للدخان أو للكلاب. بعض أحمرة مطأطئة قرب أكداس أعواد جافة. هدوء شامل يخيم على المركز، فبدا لي مقبرة مهجورة، سكون عميق يشمل المنطقة باستثناء صوت طائر ينبعث من الصخور البعيدة:

- طيكوك. طيكوك.

في الماضي، كان هذا الصوت يبعث الحيوية في الحياة، إن يستفز الخيول فتهج راكضة وذيولها تصفع الذباب في مرح، لتتبعها البقرات، والأطفال نحو الوديان الرقراقة. أما الآن فما أثقل هذا الصوت الحزين، إنه لا يثير إلا الذكريات البعيدة.. لا. قد يثير الهمم لمواصلة المهام الثورية.. قد يكون صوت شهداء الأوراس.

- عم. ما بك ؟ إنك توشك أن تبكي.

- لا شيء. لكن الجندي كما تعلمان، فقير أيضاً، ليس معي سوى دورو (دورو تعني فلساً باللهجة الجزائرية الدارجة)**. ها هي، اقتسماها.. سلبتما كل ثروتي أيها الشيطانان.**

- أنت طيب جداً.

رد قاقا، أما (بسعو) فقال مقهقهاً:

- ينبغي أن نحذر اللصوص ونحن في طريقنا بهذه الثروة ياقاقا. وقبل أن نفترق سألني (بسعو) في حذر القططة:

- لم أرك في مطبخ الجنود، أتأكل هناك؟

وأشار بأصبعه الوسخة، مضيفاً:

- الأخرون يسألوننا، هل لنا أخوات.. البارحة أمي وأختي ضربتا بالعصى ضابطاً اقتحم كوخنا.

- نعم، آكل في مطبخ الضباط.. مع أنني لست ضابطا.

- لا يتركوننا أبداً نقترب من هذا المطبخ.

قال قاقا.

خيل لي وهما يبتعدان، أنهما يسيران في بركة دم متشبثين بالخبز، وعلى ظهريهما أكياس يحملانها إلى الطاحونة على الضفة الأخرى، ليبعثا جعجعة جديدة، ولكن بالطحين هذه المرة .

ممر الأيام

ابتسامة واحدة فقط.. كانت كفيلة بأن تجعل كل الأحكام التي أصدرها على الأيام، وعلى الحياة عرضة للخطر. ولئن كان لم يراجعها، ويتثبت منها، فإن احمرار وجهه في اليومين الأخيرين، وحركاته النشيطة، الكثيرة، ودخوله وخروجه، إلى غرفته على غير عادة.. واعتناءه بالنافذتين، ينفض عنهما غبار الأيام بين الفينة والأخرى، بل وحتى عناوين المسرحيات التي تتراقص في ذهنه باستمرار.. كل ذلك يُشعر من يعرف (عبد الستار) بالتبدل العميق الذي طرأ عليه، وبأن فلسفته التي يقول عنها إنها فلسفة كل شاب عربي في خطر، إن لم يجزم بأنها انهارت بالفعل، ويأسف لذلك إن كان ممن يقرون بصحتها ويقاسمونه إياها.

***

انفصل عبد الستار عن عائلته لخلاف جوهري عميق، بينه وبين زوج أبيه. واكترى غرفة تقع في أقصى حي من المدينة ذات مدخل فسيح يشبه غرفة ثانوية، أو قاعة، يحتج به عبد الستار حين يسمي غرفته بالدار؛ فيعارضه أحد.. وذات نافذتين إحداهما في المدخل والأخرى في الغرفة التي سار في تأثيثها على منوال تلامذة الآفاق الزيتونيين، الذين يقطنون (المدارس) أو (الوكالات). سرير خشبي بنصف دينار! وفراش بسيط، وحقيبته التي خرج بها من دار أبيه، ومنضدة حديدية مستديرة ومقعد، أنسى فيهما صاحب المقهى الذي استعارهما منه.

ومنذ القطيعة بين عبد الستار ودار أبيه أنهي مشكل التعليم فانقطع عنه غير آسف على شهادة التحصيل التي لم يبق إلا شهران عن موعد الامتحان فيها وانشغل بكتابة المسرحيات الإذاعية، يتقاضى منها، إن صادف وأذيعت باسمه، مبلغًا لا بأس به، يكفي (...) لتسديد ما ترتب في ذمته من دين لدى (العطار) ليستأنف تناول السجائر. ومقتضيات طهي طعامه الخفيف، على الحساب.

وليس من المستبعد أن يكون عبد الستار قد حاول المرات العديدة أن يربط علاقة بإحدى الفتيات، قبل أن يغلق ذلك الباب إغلاقا مبرما.. ويصبح من الذين يسميهم (بالمتخلفين غراميا). يستاء ويثور إذا ما ذكرت أمامه لفظة الشباب، أو الحيوية، أو الحب، ويعيد على أصدقائه الذين يجتمعون عنده ليلة في كل أسبوع رأيه المعروف: لا شباب في العالم العربي. وليس للعربي من أطوار سوى طور الطفولة الذي لا مسؤولية فيه. وطور الكهولة والشيخوخة حيث المسؤولية، وتبعات الحياة والبقاء، وانتظار النهاية التي ليس منها بد. وينفعل في كل مرة إلى أن ينتهي به الأمر بجرح عواطفهم فيتهمهم بالكذب على أنفسهم، وبالزيف، وأنهم بأوهامهم يضيفون إلى ركود المجتمع ركودا، وإلى تأخره تأخرا وانحطاطا. وكثيرا ما يؤول الأمر إلى مغادرة البعض الجلسة خاصة حين يطلب منهم أن يثبتوا له من منهم عاش يوما لا يشبه بقية أيامه الماضية، ومن منهم ليس في انتظار يوم ما، يكون نهاية للأيام الطويلة التي تمر وكأنها جدران لممر ضيق نتن قذر لا مفر للمرء منه يسير فيه حتما إلى حيث لا يدري. يوم يكون ثغرة يفلت منها المرء إلى العالم الذي يسمع ويقرأ عنه، ويحلم به في يقظته ونومه. ومرت سنوات على هذه الوتيرة، لم يتغير فيها شيء بالنسبة لعبد الستار. اليوم كالأمس، والغد كاليوم وكالأمس. الأيام جدران كثيفة تحصر ممرا ضيقا نتنا قذرا، لا نهاية له. الإنسان العربي لا يعرف طور الشباب...

ولو أن دخله ارتفع إلى مستوى يمكنه من تناول الطعام في المطاعم ومن تدخين سقائر أرقى من (الحلوزي) (والأرتي) ومن اشتراء قطعة جديدة من الثياب لائقة في كل شهرين تقريبا.

لكن هذه الأيام...

***

ابتسامة واحدة فقط كانت كفيلة بأن تجعل كل الأحكام التي أصدرها على الأيام والحياة في خطر. فقد استيقظ ذات يوم كالعادة متأخرا. وأبعد عن فراشه (...) أوراق الفصل الثالث من مسرحية (الثلوج المتراكمة) التي يكتبها، والقلم والشمعة التي تركها مشتعلة حتى أتت على نفسها. نظر إلى ساعته يتعرف الوقت فوجدها قد توقفت في الساعة الواحدة. وبعد جهد حمل نفسه على النهوض، ففتح النافذة آملا أن يمر أحد يسأله عن الوقت، فإن لم تمض الساعة الحادية عشرة، أسرع ليلتحق بالمسرح حيث تواعد مع مدير إحدى الجمعيات التمثيلية.

وربما هي المرة الأولى التي يرفع فيها رأسه إلى العلو المقابل، حيث التقت عيناه بعينين غسقيتين، تبعثان القشعريرة في الجسد. ولم يصدق عينيه حين انفرجت شفتان عذبتان رقيقتان، عن ابتسامة محتشمة، فأمد عنقه، وأدار رأسه ذات اليمين وذات الشمال؛ فقد يكون هنالك أحد غيره ابتسمت له. ولكن لا، إنها تبتسم له، هو بالذات. أعاد النظر إليها مرة ثانية، كانت لا تتجاوز، على أكثر تقدير، الثامنة عشر من عمرها، سمراء ربعة القدّ، دقيقة الخصر، ساحرة حقا، وفاتنة مثيرة.

حاول أن يرد التحية بأحسن منها، ولو أنه يجد في ذلك مشقة وعناء أكثر مما يجدهما حين يحمل نفسه على النهوض من مضجعه. لكنها داعبت شعرها بيدها اللطيفة، وولت إلى الخلف في رشاقة ودلال، ليظل بصره عالقا بالنافذة لحظات، شارد الذهن، مشتت الأفكار. أين كانت؟ ترى هل هي تقطن ها هنا منذ زمن بعيد ؟ وهل إنها كانت تطل عليه، متوسلة بعينيها الغسقيتين، وهو خارج، أو داخل، ليرفع رأسه؟ أين كانت طيلة هذه المدة...؟

أيكون اليأس المستولي عليه هو الذي جعله يترك ببساطة شبابه يفلت منه..؟ أيكون هذا هو الداء العضال الذي جعل الإنسان العربي لا يعرف طور الشباب؟ كم هو قاتل اليأس! مسكينة! لا شك أنها تقضي أوقاتا طويلة في انتظاري، وأنها هي أيضا تتخبط في أمواج اليأس، إلا أنها لم تستسلم له بعد، كما يبدو! ولعل ذلك، لأنها لا شغل لها تصرف فيه طاقتها...

يا لي من فاشل مستسلم، بل يا لنا، فالماء مبذول لشاربه ونحن نحتضر ظمأ...

دار كل هذا في رأسه قبل أن يترك النافذة. دون أن ينتظرها، ارتدى ثيابه بسرعة، وغسل أطرافه ومرق كالسهم، كله نشاط وأمل وحبور. وعلى غير عادته، ما أن تقابل مع مدير الجمعية التمثيلية بالمسرح، وأمضى العقد، وتسلم تسبقة على مسرحية قدمها له، حتى عاد إلى غرفته، وأشبعها تنظيفا وجيئة وذهابا. وحس بالهواء خانقا، فعجب من نفسه كيف كان يعيش في هذا الجو، ففتح النافذتين على مصراعيهما، وجلس وراء النافذة المشرفة على علو الجيران، وحمل القلم والفصل الثالث.. ينظر نظرة إلى الورقة أمامه وعشرا إلى النافذة.. علّها تعود، ويحدث نفسه بين الفينة والأخرى بأنها عائدة لاشك.

إن لابتساماتها معنى صريحا، لو كنت من الخبراء في هذا الميدان، لاكتشفت أسرارا تخفيها. ويقين أنها ستطل لأول فرصة تجدها، وأنها تفكر في أكثر مما أفكر فيها. وشعر كأنما تيار كهربائي يسري في جسده، وبالمقعد تحته يهتز، حين التقت عيناهما، في لهفة وظمأ. لم يعُد إليه هدوؤه إلا بعد عناء وجهد، فرفع يده إلى شفتيه يرسل لها قبلا. وانطلق حين ردت عليه بأحسن من تحيته، فتلمست شفتيها ثم قلبها وأرسلت زفرة حارة تحرك لها نهداها المنتصبان على صدرها ينذران بالخطر. وأشار لها بيده، ما إذا كان في إمكانها أن تقابله، فرفعت حاجبيها.. أنْ يا ليْت. وقال لها هل تستطيع أن تخرج معه؟ فأعادت بحاجبيها: يا ليْت...

وفجأة التفتت وراءها، ثم أنذرته وتوارت.

***

لم يعر عبد الستار أدنى اهتمام، لما قالته عيناها: يا ليت.. وانغمس في الحبور، والسرور، طالقًا العنان لمخيلته، ترسم ما تشاء من الأماني والآمال، وتشيد ما حلا لها من قصور السعادة والهناء والانطلاق: ستتبدل الحياة غير الحياة، وستتحول الأيام التي كانت تمرّ وكأنها صخور لجدارين يحصران ممرا ضيقا نتنا قذرا لا منتهى له. سيصبح كل يوم عالمًا بذاته، زاخرًا بالجديد، وطورًا من أطوار الشباب لا ينتهي، وحاجزًا قائمًا في وجه الكهولة والشيخوخة لا ممرًّا يفضى إليهما... ولشدة ما نسي نفسه وفلسفته، راح يتساءل:

- يالله ! ما الذي يمنع الإنسان العربي من ممارسة شبابه؟ الماء مبذول لشاربه، ونحن نحتضر ظمأ: لماذا؟

وبالرغم من أنه لم يتناول خمرًا، ولم ينم أكثر من ست ساعات كل ليلة، فإن الأيام الثلاثة التي مرت.. لم يدر كيف مرت. وكل يوم كأنه إغفاءة لذيذة، يحييها فتحييه، يرسل إليها قبلة، فتقذفه بعشر.. يعانقها من بعيد فتعانقه.. وسرعان ما عرف عنها الكثير. اسمها (وردة)، يتيمة الأم مثله، أبوها يشغل منصب (كوميسار) والذي يهمه أن يعرفه عنها، هو أنها أحبته من زمن بعيد.

حتى كان اليوم الرابع.

أطلت عليه كئيبة، يبدو على عينيها خيط أسود.. جعله يدرك للوهلة الأولى أنهما لم تغمضا طيلة ليلة البارحة، وأن دموعا غزيرة انهمرت منهما.

وقبل أن يستفسرها عما بها، ألقت برسالة تحت نافذته، فأسرع، وبأصابع مرتجفة، تمسك للمرة الأولى رسالة كتبتها أنثى، التقطها، وعاد إلى مكانه، يلتهم سطورها التهاما:

عزيزي عبد الستار، كم كنت أتوسل إلى الله ألا يجعل بداية حبنا نهاية لمأساة.. وأن يجعله يشذ عن حب الآخرين! وكم كنت أود لو أننا اتصلنا ببعضنا قبل الآن، بل كم أعاتب نفسي وأحنق عليها، لأني لم ألفت نظرك قبل اليوم، وخانتني شجاعتي في ذلك. والحق أنني كنت مستسلمة إلى الأيام تجرني في ممرها إلى النهاية التي ينتهي عندها...

عزيزي (عبد الستار)، البارحة، وقبل أن أنام، أستغفر الله، قبل أن آوي إلى مخدعي، قدمت لي زوج أبي صورة لشاب، قائلة: إن أباك يكون مسرورًا، إذا ما وافقت على الزواج منه... إنني لم أعطها الرد الحاسم، إذ أنني أثق سلفًا أنه عند أبي الفظ.. هل لديك أنت من حل ياعزيزي؟

وأحرّ قبلاتى في الختام. المتألمة: وردة.

رفع رأسه إثر انتهائه من تلاوة الرسالة، فوجدها تنظر إليه وفي عينيها تتلألأ دمعتان، وبصوت متهدج، مختنق، ملؤه اليأس والقنوط قال لها:

- ليس كلانا في الممر مادام ليس في وسعه أن يفلت من قبضته. أجيبي أباك بالإيجاب، أما أنا فإنني سأرتحل عما قريب..

ثم أغلق النافذة، وتناول (...) الفصل الثالث من مسرحية (الثلوج المتراكمة) واسترسل بعزيمة الدهر... .

رقصات الأسى

هدير من التصفيقات، والهتافات، والصفير، يعصف وأنظار الآلاف مصوبة نحو مصب شلال النور، المتدفق من الأعمدة الدائرة بالملعب، بعد أن أعلن مقدم الحفل عن الفرقة الراقصة التي اكتسحت مساء أمس شوارع العاصمة، في رقصة الفرس، وكأنها فرس حقيقية، يركبها فارس ولهان.

مرت لحظات، والحلبة المقامة في شكل طبل كبير خالية إلاّ من النور المستقر فوقها وحدها.

صفر الجمهور، وهتف، وعندما تمركز النور أكثر على الحلبة، ساد الصمت المطبق.

- لن ندعها تغادر الحلبة.

قال شاب فرد عنه جاره:

- يجب ألاّ تغادرنا حتى نموت جميعاً ها هنا.

- ما دامت راقصة فلترقص حتى يوم القيامة.

أضاف آخر، وقال رابع لنفسه:

- تبعتها من قريتنا، وقضيت أسبوعاً في قسنطينة ألاحقها بعيني، وها أنني بالعاصمة منذ أربعة أيام، أراها عن بعد، دقيقة ثم تختفي عني يوماً كاملاً. لم يمنعني امتلاء النزل، من الإقامة بالعاصمة، بت ليلة باصطبل في (الحراش) وثلاث ليالى بالحمام. لا يهم.

هذه الفتاة أحبها. أحبها وأعبدها. لم يبق أمامي إلاّ أن أغرس خنجراً في صدرها.

علا التصفيق من كل جانب عندما دبت الحركة في مدخل السراديب، ثم اشرأبت الأعناق.

برز (القصاب) من المدخل، أجال بصره في الملعب، فلم يقابله سوى أشباح تتحرك في الظل، وسط سحب الدخان الكثيف.

ارتد بصره إلى شلال النور واستقر هناك.

تقدم إلى الأمام خطوات ثابتة، ثم صعد درجة فثانية فثالثة فرابعة وخامسة، ووجد نفسه في قلب النور، على حافة الحلبة.

كان طويل القامة، عليه جبة بيضاء، وبرنس صوفي أبيض، على رأسه عمامة حرير صفراء، عليها عدة دوائر متقطعة من خيط وبري أسود، طويل الوجه، معقوف الأنف. في جبهته وشم.

فلتت موجة من التصفيق، ثم سرعان ما انقطعت.

- الحمودي الفحل.

قال فتى القرية العاشق بصوت منخفض ثم هتف بأعلى صوته:

- تعيش يا الحمودي الفحل.

انتصب الحمودي هنيهة، كتمثال روماني، ثم أخرج من تحت جُبّته قصبته الطويلة. مرر يده على فمه وذقنه، بلل شفتيه، بلسانه، وأمسك القصبة بكلتا يديه، وانطلق اللحن، في حين انحسر النور فوقه.

كان المفروض أن يكون اللحن الاستهلالى مديحياً خفيفاً، ولكن الحمودي خالف العادة وما اتفق عليه، بوازع باطني لا يدري كنهه. وراح يرسل أنغاماً، لا تعزف في الأعراس والحفلات، إلاّ مع منتصف الليل، عندما ترتفع حرارة العواطف، وتنحدر العقول، ويتمنى كل واحد الذوبان في ليل طويل.

- الله. الله.

ارتفع صوت فتى القرية يشق الصمت، مع أنغام القصبة، التي كانت تنوح.

تقدم لحمودي خطوة، وتبعته هالة النور المحيطة به، فأغمض عينيه، واستسلم كلياً للانسياب الذي يخرج من صدره، في أنغام تشكل نداء ظامئاً موجهاً إلى شيء مجهول في بعد سحيق:

***

(الكامل مسكين. أول من عزفت معه. في الثلاثين. عملاق، له وجه ملاك، كل راقصة تقف أمامه، تلف حوله لفتين أو ثلاثاً، ثم تمد يدها لتنزع عنه اللثام، وتظلُّ ترقص له، وعيناها معلقتان به، إلى أن يأخذوها عنوة من أمامه.

صوته قوي صاف، مؤثر، لا يغني أشعار وألحان غيره، إنما يقول بالسليقة في كل عرس، من أول الليل إلى مطلع الفجر. يشرع في الغناء قبل أن أعزف، مسطراً لي اللحن ثم ينطلق غير مبالي بي.

في العرس الأول وجهت إلى رأسه رصاصة، مزّقت أذنه، ومرّت لتستقر في قلب عذراء كانت ترقص، تحول العرس إلى مأتم، وظل الجندرمة أسبوعاً يبحثون ويستنطقون، دون أن يكتشفوا الجاني.

في العرس الثاني. مزقت راقصة عذراء، ثيابها أمامه، جاء أخوها مشهراً خنجره. هربنا تحت الأقبية وانطلقنا نركض في الظلمة، وفي الغد سمعنا أن العروس الجميلة طعنت، وأن أخاها سيق إلى السجن، ليرسل بعد ذلك إلى (كيان).

فى العرس الثالث، خرجت زوجة شابة سافرة الوجه طويلة نحيفة، بيضاء لم يخلق الله ما يماثلها في الجمال كانت ترقص وتبتسم، مدت أصابعها اللطيفة، وأزالت لثام الكامل، انجذب إليها، وتملكه السحر، فلم يدر ما يفعل، سوى أن يغني:

أنت رقيقة والحرير لباسك

الشمس خدك والقمر عساسك

الروح بيتك والقلب فراشك

ثم تناول خصرها بذراعه، وراح يرقص معها، يحف بهما كل عذاري وفتيان العرس، وتحلقوا حولهما، واستمرت الرقصة حتى بزغت الشمس.

بعد يومين، جاءه زوج المرأة على ظهر حمار وبين ذراعيه طفلة في الشهر السادس تبكي جافة الحلق:

- رد لي زوجتي، أو خذ حتى هذه.

عاد الكامل إلى كوخه، ثم خرج وفي يده عصا، وعلى كتفه حزمة.

- ابقوا بالسلامة، أنا قاصد بيت ربي.

تمتم الكامل وعيناه مغرورقتان، ثم أمّ الشرق. ظللنا نتبعه. انحدر مع الشعبة، ثم صعد السفح، ينفخ الريح جبته على رأس الربوة، قبل أن ينحدر بدون أن يلتفت، ويغيب عنا إلى اليوم.

منذ عشرين سنة وأنا أسأل عنه كل حاج، فلم يبلغني خبر.

***

عندما انسكبت دمعتان من عينيه فتحهما، ليجد نفسه وسط دائرة النور، في قلب الحلبة، والهتافات والتصفيقات تهز الملعب.

- هذا اللحن هتاف آت من خلف الأفق.

قال واحد فأضاف آخر:

- بل من خلف أعلى نجمة.

- بل من سويداء قلب عذراء حزينة.

قال فتى القرية العاشق وهو يتفقد الخنجر في جيب سترته.

راحت دائرة النور تتسع شيئًا فشيئًا حول الحمودي، حتى عمّت الحلبة كلها، وعندما سمع دقات خفيفة على (البندير)، استعاد وعيه، وتذكر موقعه والهدف من عمله هذا:

- في المهرجان، نتبارى على الجوائز. لم أعزف لأحد منهم. عزفت له وحده. الكامل.

انحسر النور، ولفّته الظلمة، بينما تمركزت دائرة مشعة على حافة الحلبة، عند الدرجات الخمس. ارتفعت دقات البندير، حتى ظهر مصدرها:

- إيه خويا الخميس إيه.

هتف فتى القرية العاشق.

صعد المغني الدرجات بسرعة، يلفه لباس يماثل لباس الحمودي، ولو أن قامته، أقصر بقليل. تخطى دائرة النور، وسط الهتاف والصفير والتصفيق، انضم إلى زميله في الظلمة. انسحبا إلى الخلف حتى حافة الحلبة.

انطلقت القصبة تعزف مع دقات البندير، لحن الرقصة في إيقاع فرحة مشوبة بأسى رقيق، كأنها صادرة عن فرس تخبّ بمحارب منتصر، أو قادمة بفارس شاب، خرج من خلف الضباب، ليستنفر القبيلة، ويوقظ فرسانها.

- ستخرج. المرجل يغلي.

قال فتي القرية العاشق لنفسه، وقلبه يهتز في عنف، وسط الهتافات والتصفيقات، والصفير الحاد، وعيناه مُعلّقتان بشلال النور المنحدر مع الدرجات الخمس، عند مدخل السراديب. وإن هي إلاّ لحظات، حتى برزت بقامتها الفارغة وثوبها الأحمر السابري المشرشف بالأبيض، العريض في الأسفل، المشقوق من الأمام. على رأسها منديل أبيض مشدود بآخر هبط على أذنيها، وعُقد تحت ذقنها.

كانت برأسها بمنديلها الأحمر الجميل، بركبتها الصاعدة النازلة، وبصدرها المنتصب وذراعها الممدودة، تبدو كمهر حقيقي.

- آه. آه. هي ذى.

قال فتى القرية العاشق وقد ساءه أن تكون محط أنظار الآلاف، ومبعث آهاتهم، وقالت الراقصة وقد صممت أن تسرع أكثر، لتسبق شلال النور المنصب عليها، في دائرة تتبعها كلما خطت على الأنغام المنبعثة من الظلمة:

- الألم يشتدّ عليّ الليلة. كليتي توجعنى الليلة أكثر. قال الطبيب في انتظار إجراء العملية، ينبغي ألا ترهقي نفسك.

بلغت مركز الحلبة واستقرت في دائرة النور، ترقد وتستدير في بطء، لتواجه بركبتيها المهتزتين، وبخصرها الملتوي، وصدرها المنتفض في انتصاب، وذراعها اليمنى الممتدة باليد المنقبضة ويدها اليسرى الماسكة بطرف ثوبها ترفعه قليلاً لينسجم وحركة ركبتيها. وعندما تصاعدت النغمات وكأنها نداء استغاثة صادر من مطعون، وثبت إلى حافة الحلبة وراحت تدور معها بسرعة، لتجسم نغمات، استجابة الفارس إلى استغاثة المطعون.

ظلت دائرة النور تتبعها، وظلت الهتافات والتصفيقات والزفرات تتجاوب، بلغت مصدر النغم، فلامست دائماً النور، لحمودي ولخميسي.

كان لحمودي ينحني وينتصب، مسايراً لنغمات قصبته، بينما صدره يعلو وينخفض، وعيناه تتبعان ساقي الراقصة. في حين انحنى لخميسي إلى الخلف قليلاً، ذراعاه ظلتا ممدودتين، وأصابعه تنقر على البندير في إيقاع يشتد ويلين، يغلظ ويرقّ.

كانت عيناه مغمضتين، وكان ذهنه شارداً مشتتاً:

***

(تسعة عشر سنة، وأنا أعلّم كلام الله، مرّ على يدي، وبعصاتي الزيتونية الطويلة جيل برمته، بعضهم صاروا أطباء. وبعضهم أساتذة في المعاهد والكليات وبعضهم ضباطاً سامين. وبعضهم محامين وبعضهم فقهاء وعلماء. بقيت في وضعي أرقب تدافع الأجيال وأرتل كلام الله. نمت بين يدي صبيّة أبدع الرحمان في صنعها. كان والداها فقيرين، فلم يدخلاها المدرسة الفرنسية. ظلت تترعرع كالغصن الطري بين ناظريّ، وتتفتح كالقرنفلة أمام أنفي. في التاسعة حفظت الستين. في الثانية عشر وهبها أبوها لي، تلونا الفاتحة، وذبحنا ديكاً، وآوينا إلى الكوخ. ظلت مخلصة لي وفيه. لم يؤثر فيها لا الجوع ولا العري، لا إغراء أبناء الأغنياء. كانت تقصّ عليّ كل ما يحدث لها أو يخطر ببالها، وكلما صادفتنا مضايقة، ارتحلنا مع الفجر، وبدلنا الدوار أو القرية.

بدأت المسكينة تسعل، وبدأ وجهها الناضر يذبل ويصفرّ، ولم تكد تمضي ثلاث سنوات حتى نزفت كل ما في صدرها. عدت ذات مساء إلى الكوخ، لأجدها قد تزينت، وقد احمرت وجنتاها، وعاد الدم إلى شفتيها والإشعاع إلى عينيها. أمسكت بيدي، وظلت تقبّلها ودمعتان في مآقيها، بينما تتراقص بسمة ودود على شفتيها. حاولت إيقاد القنديل فمانعت.

- لا يا حبيبى لا. هكذا نسرح بخيالنا أكثر.

لثمت يدى، وقدمت رجاء غريباً:

- هذه سبع سنوات تمرّ على زواجنا. وهذه ثمانية عشر سنة تمرّ على حبنا. منذ كنت في الرابعة، كان صوتك يسحرني، لم أكن أفقه ما كنت ترتل. ولكني كنت أتذاوب لنبرات صوتك. الذي يتفجر من حنجرتك نبرات مؤثرة، ويسيل في أرواح مستمعيك نغماً ساحراً. ودعني الليلة بالغناء يا حبيب روحي. غنّ لي غنّ.

- ماذا تقولين يا عزيزتي؟

- صوتك تسبيح للرب، أكان بالذكر أم بالغناء فغنّ لي. هذا آخر رجائي. غن لي في الظلمة.

- وماذا تريدين أن أغني لك يا حبيبتي؟

- غن لي أغنية تعبر عن الأسى والفرح في الآن الواحد.

- تعرفين أنني لا أعرف لا الكثير ولا القليل من الأغاني.

- أريد أن أسمع حكاية الجازية وذياب الهلايلي وفرسهما في أغنية، في لحن منبعث من حنجرتك. ألا تتصور الجازية وقد اشتدت عليها مضايقات خليفة الزناتي، تبكي وتتطلع إلى الأفق، ثم خروج ذياب من هنالك على فرسه البيضاء يسابق الريح. أريد خلجات قلوبهم جميعاً في تلك اللحظة. أن صوتك الجميل يستطيع أن يؤدي ذلك، فهيا غنّ لي يا حبيبتي، ودعني. أنني لا أستطيع أن انهض لأرقص، ولكن ها هو قلبي شرع يرقص بعد، فهيا غنّ.

- نعم أغني لحبيبتي. أغني لها أغاني الشوق والفرح، والأسى والتطلع. دعيني أتذكر اللحن جيداً.

وقبل أن أرفع عقيرتي، شهقت، وسقطت يدها التي كانت تتشبث بيدي. كانت محبوبتي لفظت النفس الأخير، لم أستطع أن ألبي لها حتى أبسط رغبة).

***

مرت الراقصة ترفل، وهي تدير رأسها يمنة ويسرة مع إيقاع قدميها وصدرها ويديها، وتبعتها دائرة النور. شعرت بالألم يشتد عليها، فقررت أن تقطع جولتها، على حافة الحلبة الكبيرة، وراحت تتجه في بطء وتثاقل نحو مركزها.

- ما بها؟

تساءل لحمودي في سره وهو يضرب بمرفقه كتف لخميسي، الذي فتح عينه وراح يتأملها.

- الألم يشتد عليها ينبغي مساعدتها.

رفع البندير إلى أعلى، وراح ينقر بقوة أكثر، نقرات متباطئة، فهمه لحمودي لحينه، فرفع النغم، ليلفت انتباه الراقصة، ثم جعل اللحن يثقل شيئاً فشيئاً.

- لو يطفئون هذه النار، لو يوقفون حركة هذه الدائرة المطاردة لي. همهمت الراقصة، التي رغم تجاوبها مع نداء لخميسي ولحمودي ما زالت تشعر بألم مبرح.

جسّ فتى القرية العاشق الخنجر في جيبه، ثم قرر أن يغير مكانه.

- يجب أن لا أكون بعيداً عنها، حتى لا أعرقل في هجومي من طرف الشرطة، أحبها وأعبدها.

بلغت الراقصة مركز الحلبة المستديرة، وراحت تؤدي حركة الفرس الراقصة، لكن في بطء وفي نقطة واحدة. كان الألم المبرح يشتد أكثر.

لاحظ لحمودي اختلالاً في بعض حركات الرجل اليسرى التي هي أساس الرقصة، فتقدم إلى الأمام بعد أن لكز زميله بمرفقه.

اقتربا منها. وراحا يرقصان حولها، محاولين تغطيتها بقدر الإمكان بأجنحة برنسيهما.

- لا تزال بضع دقائق، عليها أن تتماسك فيها.

قال لخميسي في سره، وأضاف لحمودي لنفسه:

- إذا لم يسقطها الألم نلنا الجائزة الأولى أو الثانية أو حتى الثالثة. الجمهور متحمس لها.

اتسعت حلقة النور حتى حوت الثلاثة وتواصلت الرقصة.

***

(بعد أول رقصة أمامه، في العرس الأول الذي غنى فيه، بعد أن أقسم ألاّ ينقطع عن الغناء حتى يعيدها إلى الحياة. تقدم إلى أمي يطلب يدي. في الغد تزوجنا. غنّ لي.. كان يقول وهو يتأملني: لقد عُدتِ إلى الحياة يا حبيبة روحي، سأشبعك غناء، وسترقصين لا بقلبك الطيب فقط، ولكن بكامل جسدك الجميل. لم يكن ينفكّ على الغناء ليلاً ونهاراً، ولم يكن يفارقني لحظة. نحيي أعراس الناس ليلة وليلتين في الأسبوع، لنتفرغ إلى الانهماك في عرسنا الكبير.

عندما قال الطبيب أن إجراء العملية ضروري، بكى كالطفل، العملية تتطلب اختصاصياً لا يتوفر في المستشفى. كل ما نملكه من نقود انفقناه في الفحوص والتنقل إلى المدن بحثًا عن الطبيب الاختصاصي وفي شراء الأدوية. لم أشتغل شهرين، فرفض أن يغنّي لغيري. نفد مدخرنا وتراكمت علينا الديون.

أقنعته بضرورة المغامرة، من أجل نيل الجائزة. أقنعته بعد جهد. في مباراة التصفية الجهوية حازت المرتبة الثالثة. المهم أن أرقص أمام الآلاف في العاصمة.

- أغلب المسؤولين عن المهرجان يريدونك أنت لا رقصك فيها نعود إلى قريتنا. ذلك مستحيل، ولن أتسامح فيه، وأن اقتضى الأمر أن نصب البنزين على أنفسنا ونضرم النار.

كان لخميسي المسكين يؤكد لي طيلة المهرجان، وكنت أحاول باستمرار إقناعه بضرورة المحاولة.

- ربنا كريم رحيم. وهنالك في العاصمة، المسألة تتعداهم جميعاً، تصفق لنا الآلاف، وسيشاهدنا وزراء ومسؤولون كبار. يصورنا التلفزيون، ويكتب عنا الصحافيون. يجب أن نكافح حتى آخر لحظة من أجل العملية، ومن أجل الشرف، وسننجح. قلبي يحدثنى بذلك يا عزيزى.

- أغامر معك من أجل تلبية رغبتك لا غير. أخشي أن تغادرينى بعد أن عدت إلى الحياة، وفي قلبك غصة: لخميسي حبيبى لم يلبّ لي آخر رغبة. آخر رجاء.

يرد عليَّ ويبكي، البارحة، جاءت سيارة أحدهم، وطلبتني:

- إذا كنتم تريدون نيل الجائزة الثالثة.

قال المبعوث يهدد، فانبرى له لخميسي:

- قل لمن أرسلك أن يحضر بنفسه. سأشرب دمه. لقد جئنا إلى هنا لنشتغل أفهمت؟

التحقت بالخميسي والمبعوث عند باب الغرفة قائلة:

- لا نريد الجائزة. عندنا نقود كثيرة، تغنينا عن الطمع في الجائزة. جئنا من أجل أن نرقص لا غير. هل فهمت؟ هو زوجي وحبيبي في نفس الوقت. لو لم تجهدني رقصة الأمس في شوارع المدينة لتحملت الليلة الألم. آه. أنه يشتد عليَّ. أدركني لخميسي فإنني أوشك أن أقع. قل لهم أن يطفئوا لي النور اللعين الذي يحاصرني. هذه النار التي تأكلني).

***

- لا. لن أقتلها الليلة. المسكينة يجب أن لا تغادر الحياة. قد أقتل غدًا نفسي. قرر فتى القرية العاشق، ثم عاد إلى مكانه ليهلل من أعماقه مع الآلاف للراقصة الجميلة. وما أن جلس وركز نظره فيها، حتى راعه المنظر.

- أنها تتلوى ولا ترقص.

تلوت الراقصة وتمايلت تماسكت، وتماسكت ولكنها لم تقو على منع نفسها من السقوط إلى الخلف على قدمي لخميسي.

أمسك لحمودي لخميسي من ذراعه بعد أن توقف عن العزف، والتفت به إلى الجمهور، جاراه لخميسي فراح يحيّي مثله منحينا في حين راحت دائرة النور تتسع وتتسع لتشمل الملعب كله.

- لقد أغمى عليها.

قال أحدهم، فأضاف آخر:

- لعلها ماتت يجب أن نطالبها بمواصلة الرقص، هذا أجمل ما قدم لنا في المهرجان.

- طُعنت الفرس. لا شك أن فارسها نجا، ما أجملها من خاتمة للرقصة.

***

سارع رجال الإسعاف بنقالة، وظل لخميسي يلاحقهم متسائلاً:

- ألا تزال على قيد الحياة؟. سأذهب معكم. لن أبقي مرة أخرى وحدي.

في حين وقف لحمودي في مركز الدائرة، كتمثال روماني، وأرسل النغم الذي استهل به العرض، في لحن يشكل نداء ظامئًا إلى شيء مجهول في بعد سحيق، وهتافاً آتيًا من خلف الأفق، ووراء أعلى نجمة، ومن سويداء قلب عذراء حزينة. وانحسرت دائرة النور لتشمله وحده.